عنوان البرنامج: القيم
الوحدة الأولى: مدخل تأسيسي لمفهوم القيم
الدرس الرابع: تحديد مفهوم القيمة من المنظور الإسلامي
اسم المحاضر: الأستاذ الدكتور محمد بلكبير

تحديد مفهوم القيمة من المنظور الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين..

أواصل الحديث حول القيم في الحلقة الرابعة. في الحلقات الثلاث الأولى سلطت الضوء على مجموعة من التعريفات الخاصة بالقيمة من حيث دلالاتها اللغوية والاصطلاحية، وكذلك الدلالات المرتبطة بالجانب السيكولوجي، والبعد السوسيولوجي، وأحاول في هذه الحلقة الرابعة أن أمعن في التحديد، وأن أوسع مجال هذا التحديد، ليطال المنظور الإسلامي: «القيم من الجانب الإسلامي أو إسهامات الإسلام في ترسيخ وبناء القيم». من حيث الجانب الفلسفي، قلت إن القيم ترتبط أو تُجْمل في ثلاث قيم كبرى: هي قيمة الجمال، وقيمة الحق، وقيمة الخير، ولكن القيم من المنظور الإسلامي تتسع إلى أكثر من ذلك، من حيث المضامين والمحتويات، كما أنها تُبنى من الجانب المنهجي والجانب الأساسي، باعتماد ما أصبح يعرف الآن في علم النفس وعلم الاجتماع بأسس بناء القيم، وكأن الإسلام استحضر هذه الأبعاد، وهذه الأسس البنائية للقيم قبل أن يتناولها علم النفس الحديث بمختلف فروعه، وخاصة علم النفس الاجتماعي، وكذلك السوسيولوجيا في دينامية الجماعات بشكل خاص. حينما نستحضر القيمة في المفهوم العربي، لأن اللغة العربية هي وعاء للفكر الإسلامي، بداية حينما نتكلم عن أن لغة القرآن هي اللغة العربية، إذن هذه اللغة تشكل بكل تمظهراتها وبكل أنواعها واختلافاتها ومفرداتها ومصطلحاتها وقواميسها، الوعاء الفكري للمتكلمين بهذه اللغة، وحينما نحاول أن نبحث عن القيمة في الدلالة اللغوية نجد هذا البعد كما ورد في الحلقة الأولى، حينما تكلمت عن التعريف اللغوي، نجد كلمة القيمة التي اشتقت من ثلاثة حروف القاف والواو والميم «قوم»، وما ترتب عنها من مشتقات، والتي تفيد الثبات

والكمال والاستقامة... ولكن مفهوم القيمة كتقييم وكحكم، هذه أشياء لم نجدها في الكتابات ولا في مدلول الفكر العربي عموما سواء في شعره أو في نثره، ولكننا نجد بديلا عن ذلك البعد الخارجي للقيمة، أي التمظهر الخارجي للقيمة وهو السلوك. ولذلك يُعبر عن ذلك بالسجيّة أو السلوك أو الخليقة «ومهما تكن عند امرئ من خليقة – وإن خالها تخفى على الناس تعلم».

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، إذن هذا الخلق والمكرمات، «وإنك لعلى خلق عظيم» قوله تعالى في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذن الخلق كذلك يدل على هذه القيمة.

إذا أردنا أن نستشف القيمة من خلال الكتابات العربية القديمة، لا نجد لها هذا المعنى الذي حددناه خاصة في الحلقة الأولى والحلقة الثانية من هذه الحلقات المباركة، إذن فالقيمة في حد ذاتها كان يشار إلى جانب فقط منها، وهو الجانب الظاهر أو الجانب المظهري أو الجانب السلوكي، ولكن الجانب الخفي أو الجانب المحرك للسلوك، وهو الأهم في مكونات القيمة، ظل مضمرا، وظل مستبعدا، ولم يتم الحديث عنه. ومع بداية الإسلام وجهاد رسول الله صلى الله عليه وسلم، الجهاد الفكري والجهاد اليومي والجهاد النفسي والجهاد الاجتماعي والتربية العامة التي أرادها للناس طيلة فترة مقامه بمكة المكرمة، كان بناء العقيدة، والعقيدة هي الجانب الداخلي للقيمة، بمعنى تأسيس مجموعة من الدوافع، تأسيس مجموعة من القناعات، وتأسيس مجموعة من الثوابت الداخلية التي على أساسها يتحرك الفرد المسلم، وعلى أساسها يبني سلوكه اليومي، أي أخلاقياته وتصرفاته وسلوكياته. إذن فالعقيدة هي القناعات الأولى، ومن ثمة بدأ التأسيس لمجموعة من القيم البديلة، التي لم تكن موجودة، أو كانت موجودة ولكن بنوع من الضعف، أو ربما كانت كذلك موجودة وإنما يجب تثبيتها وإكمالها، لذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، بمعنى أنه كانت هناك أخلاق تعتبر مكرمات وتعتبر أخلاقا حميدة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم إنما أتى ليتممها ويكملها، ولكن هناك أخلاق أخرى لم تكن حميدة وجب الاستغناء عنها، والاستعاضة عنها بأخلاق أخرى، تؤسس انطلاقا من قيم جديدة، وهذا ما يعبر عنه بمقاصد الشريعة، وهي حفظ النفس، وحفظ الدين، وحفظ العقل، وحفظ المال، وحفظ النسل. هذه الأساسات أو هذه المقاصد أو هذه المرامي الكبرى للشريعة الإسلامية هي السلوكيات التي يتغياها الإسلام، والتي على المسلم أن يبحث عنها، ولكن انطلاقا من بناءات أساسية داخلية. إذن الإسلام سوف يؤسس العقيدة الداخلية، القناعة الداخلية. سوف يخلق الدافعية المستضمرة في فكر الإنسان المسلم وفي عقليته، ليسلك بموجبها وفق ما رسمته هذه المقاصد، إذن فالمقاصد الخمسة تحمل مبتغيات أو أهداف القيم الإسلامية، ولذلك حينما نتكلم عن «قيمة العقل» كقيمة كبرى تلخص لنا هذه القيمة

مجمل القيم التي نجدها الآن على مستوى القيم الصحية والاجتماعية القويمة والقيم النفسية القويمة لأن الله سبحانه وتعالى أراد بهذا العقل أن يكون عقلا فصلا وحكما في سلوك الإنسان. لماذا؟ لأن الإنسان سوف يكرم من الله سبحانه وتعالى، بمقارنته مع باقي الكائنات الحية الأخرى، إعدادا للاستخلاف الذي سوف يوليه إياه، لأنه سوف يستخلف في الأرض، وكذلك إعدادا للمسؤولية التي سوف يتحملها. ومن ثمة قيمة العقل قيمة مطلقة والله سبحانه وتعالى لا يتحدث إلا مع عاقل، والشخص العاقل هو مبتغى الله سبحانه وتعالى. ومن ثمة وجب بناء هذا العقل والحفاظ عليه، إذن هذه القيمة تحمل أكثر من قيم أخرى، تنضوي تحتها مجموعة قيم ما نسميه بـ «منظومة القيم العقلية»، نتكلم الآن عن «الصحة» في مفهوم المنظمة العالمية للصحة، ولا يقصد بالصحة فقط انعدام المرض أو خلو الجسد من المرض، وإنما الصحة هي الصحة النفسية والصحة الجسدية والصحة العقلية أيضا، إذن فالعقل يجمل مجموعة من القيم الفرعية التي تتجاوز القيم التي تكلم عنها الفلاسفة القدامى المجملة أو الملخّصة في الخير، والحق والجمال، فبالعقل يجمل الإنسان وبالعقل يبحث الإنسان عن الحق، وبالعقل يستطيع الإنسان أن يفعل الخير، إذن فهذه القيم التي أجملت وكأنها قيم مطلقة سوف نجدها امتدادات، أو لنقُل عنها إنها دوال أو مقاييس نقيس من خلالها مدى حصول قيمة العقل. إذن هي مؤشرات على حدوث قيمة العقل. إذن هذا فقط جانب من قيمة واحدة التي هي قيمة العقل. وإذا أردنا أن نبحث عن قيم أخرى مكملة للنسق القيمي الخماسي الذي قلنا عنه هو المقاصد الخمسة للشريعة. وقد يضيف بعض العلماء المقاصديين قيما أخرى مكملة سوف نجد أن قيم الإسلام لا تنحصر في حلقة واحدة وإنما يجب أن نبحث عنها أو نكملها في حلقات أخرى قادمة إن شاء الله ..